النص القرآني بين تأويل القدامى والمُحْدَثِين

-قراءة في الضوابط والمفاهيم-

Arab Ancient Rhetorician Role of Interpretation Selection in the Qur'anic Text.

Precision of Expression as a Model

عادل بن تونسي *

تاريخ الإرسال: 2019-03-27	تاريخ القبول:2019-07-08	تاريخ النشر:2019/07/20

الملخص:

يستطيع المتتبع لجدل الأفكار وصراع المذاهب واختلاف النظريات أن يرجع ذلك إلى قضية المعنى ومشكل التأويل، فالأديان والفلسفات وإن أجمعت على تسميات واصطلاحات ومواضعات، فإنها اختلفت في المعاني التي حملتها هذه الاصطلاحات اختلافاً وصل إلى حد التعارض والانشطار.

فالائتلاف حاصل في الأوضاع الأصلية للمفاهيم، بينما الاختلاف ظاهر في تأويلات المفاهيم واستعمالاتها، لهذا احتل مفهوم التأويل حيزاً معتبراً في المجال التداولي العربي الإسلامي وارتبطت به المعارك الكلامية المعروفة، وجرّ المسلمين إلى كثير من الجدال والصراع خاصة ما كان متصلا بالنص القرآني الذي يتصف بالقداسة والكمال والسلطة.

فهناك من يعتقد أن كتاب الله قد فسره العلماء الراسخون في العلم تفسيرات أضاءت -على سبيل الاستغراق- معانيه، وما علينا إذا أردنا أن نعود منه بقبس من الفهم وشهاب من الإدراك سوى أن نعكف على هذه المصنفات الجليلة ففيها ما يشبع النهم ويروي صدى الصادي. ولا مجال بعدها لمستزيد، ولا لمجتهد برأيه في كتاب الله تعالى.

* باحث دكتوراه سنة ثالثة-جامعة الزيتونة تونس- المعهد العالي للحضارة الإسلامية-

البريد الإلكتروني: adelbentounsi1@gmail.com

وهناك في الطرف المقابل اتجاه يرى أن النص القرآني نص لغوي مفتوح على جميع التأويلات، ولهذا فمعنى النص يتعدد بتعدد قراءاته ويتنوع بتنوعها، ويلتقي الاتجاهان – من حيث اعتقاد التناقض- في غاية واحدة هي قتل المعنى واغتياله.

هذه بعض حركة النص القرآني وتحقيق مناط التأويل بين القدامى والمحدثين، هذا الحراك العلمي المهم في تراثنا الإسلامي يحسن بنا الوقوف عنده، لأجل أن ينال حقّه من النّظر الحصيف والبحث الدّقيق والتأمل الرّشيد من خلال العناصر التالية:

أولاً: التأويل لغة واصطلاحاً.

ثانيا: التأويل عند الفرق الإسلامية.

ثالثا: التأويل وأسسه المنهجية في العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية: التأويل -قداسة النص القرآني - الحداثة - أرخنة النص..

Abstract:

The conflict between the diffrent doctrines and theories is due to the issue of meaning and explanations. Although the diffrent religions may have the same terms, they don't carry the same meanings

The terms may look the same but when we come to explane them they may totally ne diffrent,Ne be Some schoolars made a great efforts to understand its meanings.*

And they are considered as the pole ans there is no way for othets efforts

But others don't really agree.

They argue that Coran is an open text thus it bas meany eaxplanations

Interpretation amongst diffrent tendencies is worthy to be researched and studied in our islamic heritage.

through thé following elements:

1st-deffintion of interpretation.

2nd- Interpretation through diffrent points of view.

3rd- the methodological poles of interpretation in the current areas.

The key words: *Interpretation - Holiness of the Qur'anic text - Modernity - The heat of the text*

❋❋❋ ❋❋❋ ❋❋❋

إنّ أول ما ينبغي منهجيا أن يُحقَّق ونحن نتعامل مع القرآن الكريم أن نحدد مصدره أبشريٌّ هو أم إلهي؟ فإن تحديد المصدر كفيلٌ بإزاحة كثير من الظنون والاحتمالات، وتحييد كثير من المتاعب والمصاعب، وتقرير كثير من المبادئ والحقائق، فإن كان المصدر بشريا عاملناه معاملة الكلام البشري، وافترضنا في حقه ما يُفتَرض في كلام البشر من إمكان الخطأ واحتمال الخلل وقابلية التأثر بشروط الزمان والمكان، وإذا كان المصدر إلهيا تغيرت المعاملة تغيرا جذريا، فحلّ الاعتقاد بدل الانتقاد، واليقين بدل الشك، والاستلهام بدل الاتهام، والاجتهاد في الفهم والاستنباط بدل الاجتهاد في التفكيك والاستشكال، كل ذلك بناء على مبدأ عقلي، هو أن الله عزوجل تنزّه عن النقص فلا جهل ولا ظلم، وأنه هو الفاعل في الزمان وليس للزمان ولا المكان أن يؤثر فيه.

إذا عُلِم هذا وتقرر يمكننا التمييز بين النص المطرد المقدس الذي لا يلحقه قصور، وبين المفاهيم التي يعتريها النقص، من هنا بزغ التأويل نافيا القصور ومقررا القداسة بين غلوّ وجفاء، لهذا يحسن بنا الوقوف على معنى التأويل في اللغة والاصطلاح كالآتي:

أولاً: التأويل لغة واصطلاحاً.

التأويل لغة :

بعد الرجوع إلى المعاجم اللغوية تم رصد مادة التأويل والتي وجدناها تدور على ستة معان يمكن تقديمها كالتالي:

1. **ابتداء الأمر وانتهائه:** قال ابن فارس:" الهمزة والواو واللام -أول- ابتداء الأمر وانتهاؤه ومنه الأَوْلُ وهو مبتدأ الشيء"[1]
2. **التغيّر**: قال ابن فارس أيضا:" تقول العرب آل اللبن إذا خثر، ولا يخثر إلا إذا تغيّر آخر أمره"[2]
3. **الرجوع والعودة:** قال التهانوي:" آل الشيء يؤول إذا رجع ومنه التأويل وهو مشتق من الأَوْلِ وهو الرجوع"[3]
4. **الإصلاح:** قال ابن منظور:" تقول العرب أوّل الله عليك أمرك أي جمعه وأصلحه"4

5. **العاقبة:** قال الراغب الأصفهاني:" التأويل رد الشيء إلى الغاية المرادة"[5] أي عاقبة الكلام وما يصير إليه.
6. **التفسير:** قال ابن منظور: "أوّل الكلام أي دبّره وقدّره وفسّره"[6]

هذا هو حاصل ما يدور عليه معنى التأويل في أصل وضعه اللغوي كما تقرر في أمهات كتب اللغة.

التأويل اصطلاحا:

هذه الورقة البحثية لابد أن نركز فيها على دلالة التأويل من الناحية الدينية حتى لا نتوسّع خارج حقل المحور المشارك فيه، وعليه فإن لفظ التأويل قد "ورد في القرآن الكريم سبعة عشر مرة بمعنى واحد وهو ما يؤول إليه الكلام، فهو وارد على خلاف اصطلاح المتأخرين"[7] وعليه حريّ بنا الوقوف على مصطلح التأويل عند المتقدمين والمحدثين كالآتي:

التأويل عند المتقدمين والمحدثين:

❖ **التأويل عند المتقدمين:**

إن المتأمل لمصطلح التأويل في عرف المتقدمين واطلاقاتهم ينقسم إلى قسمين:

1) التأويل بمعنى التفسير{ أي مرادف له}: فقولهم تأويل القرآن أو تفسيره بمعنى واحد، وهو مأخذ تعضده اللغة كما سبق بيانه، وهذا ما دأب عليه كبار المفسرين[8] كمجاهد والطبري الذي سمى كتابه في تفسير القرآن الكريم "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، وهذا النوع من التأويل إنما هو من باب العلم كالتفسير والإيضاح، بحيث يكون وجوده في القلب واللسان وجودا ذهنيا وحضوره في التعبير والبيان حضورا رسميا[9]

التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الأمر: وهو نفس المراد بالكلام، ويؤكد ابن تيمية[10] على أن هذا النوع من التأويل ينطوي على نفس الأمور الموجودة في الخارج، فإن كان الكلام طلبا أمرا كان التأويل نفس الفعل المأمور به، وإن كان نهيا كان التأويل نفس الفعل المنهي عنه، وإن كان الكلام خبرا كان التأويل نفس الشيء المخبر به، فمثلا في قوله تعالى:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾(سورة يوسف الآية100)

فتأويل الأحاديث ممثلة في الرؤيا المناسبة هي نفس مدلولها التي آلت إليه، وهو العلم بتأويلها، فبمجرد حصول التّصور نكون أمام التأويل.

❖ **التأويل عند المحدثين[11]:** وهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وعلى كل متأول في هذا التأويل شرطان هما:

- أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي ادّعاه.
- أن يبيّن الدليل الموجب لصرف اللفظ عن المعنى الظاهر.

ومع هذا فإنّ ابن تيمية يرى أن هذا النوع دخيل على حركة التفسير الأصيلة إذ يقول:" فهذا الاصطلاح لم يكن بعد عُرف في عهد الصحابة بل ولا التابعين، بل ولا الأئمة الأربعة ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفا في القرون الثلاثة ولا علمت أحدا خص لفظ التأويل بهذا"[12] ، ويؤكد ابن تيمية على أن أصل ما أوقع بعض الفرق التي انحرفت في فهم كتاب الله تعالى بسبب التأويل المرجوح للدلالة اللفظية التي لها جناية على المعنى، وتكييف هذه المعاني لخدمة أصولهم المذهبية التي قعدوها وهو من باب تحريف الكلم عن موضعه، ولّيُّ عنق النص واخضاعه لضيق المعنى[13].

لكن الذي تسعفه الأدلة أن تأويل المحدثين ليس مردودا بالكلية، وإنما له شروط إن حصّلها يقبل ويعتد به، وهي[14]:

1. أن يكون اللفظ المرادُ تأويله يحتمله المعنى المؤول لغة أو شرعا؛ فلا يصح -على هذا- تأويلات الباطنية التي لا مستند لها في اللغة أو الشرع، بل ولا العقل.
2. أن يكون السياق محتملاً، مثل لفظ (النظر) فهو يَحْتَمل معانيَ في اللغة، ولكنه إذا عدّي بـ: (إلى) لا يحتمل إلا الرؤية.
3. أن يقوم الدليل على أن المراد هو المعنى المؤول.

4. أن يسلم دليل التأويل من معارض أقوى؛ فإذا اختلّ شرط من الشروط فهو تأويل فاسد.

مثال للتأويل الصحيح:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ سورة التوبة الآية67

فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أن النسيان هنا هو الترك[15]، وقد دل على هذا التأويل تصريحاً قوله: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾(سورة مريم الآية64) ،وأيضا في قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ سورة طه الآية52).

بعد هذا العرض الموجز عن حركة مصطلح التأويل نخلص إلى أن الأكيد هو اعتماد التأويل شكلا من أشكال الفهم والاستيعاب، يتلوه الشرح والتفسير بيانا لهما، ليتراوح بين جدلية قصد المؤلف وقصد النص، وعلى هذا يتقرر أن التأويل قد يكون صحيحا إذا وافق الكتاب والسنة مع توفر الشروط ، وقد يكون فاسدا إذا اختلت هذه الشروط، قال ابن القيم: "وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة وكان يطابقها هو التأويل الصحيح"[16].

وأجوَدُ من وقفت له على حوصلة جامعة مانعة لمصطلح التأويل هو الأستاذ الأصولي الكبير محمد الشنقيطي أُجْمِلُها فيما يلي[17]:

I. التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهو الغالب في القرآن الكريم بهذا المعنى.

II. التأويل بمعنى التفسير والبيان ومن هذا المعنى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس:"اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل"[18]

III. التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل، وهو على هذا الاعتبار قسمين:

- تأويل صحيح: ويكون بصرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح من نفس الأمر مستوفيا لشروط التأويل السليم.
- تأويل فاسد: وفيه يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنه الصارف دليلا وليس بدليل في نفس الأمر، غير مستوفي لشروط التأويل، أو قد يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلا فهذا انحراف واعتداء على قداسة النص.

ثانيا: التأويل عند الفرق الإسلامية:

تعتبر المعتزلة فرقة من الفرق الإسلامية التي أفرطت في التأويل العقلي، ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة، قبل وفاة الحسن البصري {ت110ه} بدأت نشأة مذهب الاعتزال على يد واصل بن عطاء الغزال {ت131ه}، الذي كان من مرتادي مجلس الإمام الحسن البصري، واعتزل مجلسه بسبب خوضه في القضاء والقدر، فسمّوا بالمعتزلة[19].

ومن مبادئ المعتزلة الاعتماد على العقل كليًّا في الاستدلال لعقائدهم وكان من آثار اعتمادهم على العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً فقالوا كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني: " المعارف كلها معقولة بالفعل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع أي قبل إرسال الرسل، والحسن والقبيح صفتان ذاتيتان للحسن والقبيح"[20]، ولاعتمادهم على العقل أيضاً أوَّلوا الصفات بما يلائم عقولهم الكلية، كصفات الاستواء واليد والعين وكذلك صفات المحبة والغضب والسخط ...الخ.

<u>مثال للتأويل عند المعتزلة:</u>

صفة الاستواء الواردة في قوله تعالى :﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾(سورة طه الآية05) ،قد تأوَّل المعتزلة صفة الاستواء بالاستيلاء[21]، فزعموا أن معنى استوى على العرش أي استولى على العرش وملكه! .

وهذا التأويل ما أنزل الله به من سلطان، ويَلزم منه لوازم في غاية البطلان؛ من ذلك:

- أنه صرفٌ للفظ عن ظاهره بلا أدنى قرينة، حتى وإن كانت نيّتهم تنزيه الله تعالى عن النقص، فقد وقعوا في التأويل وتحميل النص مالا يحتمل.
- أن الاستواء لا يَرِدُ بمعنى الاستيلاء في كلام العرب إطلاقًا، والقرآن إنما نَزَل بلسانهم، وقد ذُكر "عن الخليل الفراهيدي رحمه الله تعالى أنه سُئل: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: "هذا ما لا تَعرفه العرب، ولا هو جائز في لغتها"[22]، وقد كان رحمه الله إمامًا كبيرًا مِن أئمة اللغة.

والاستواء "معناه واحد من حيث كونه معنى كليا في الذهن ويخصص بالإضافة، حيث يختلف المعنى بما يناسب الإضافة "[23]

وحسبنا في هذا المقام ما جاء في كتاب "الحلية" لأبي نعيم "أنّ جعفر بن عَبْد الله قال كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عَبْد الله الرحمن على العرش استوى. كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء -يعني العرق- ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال:" الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج"[24]، هذا الكلام من إمام دار الهجرة هو بمثابة القاعدة التي تُخرج على جميع الصفات للسّلامة من التأويل، وتنزيه الخالق عن المخلوقين.

يقول الدكتور حسين الذهبي معلقا على تأويل المعتزلة :"إنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني مالم يكن معهودا عند العرب في زمن نزوله، وطعنت في بعض الأحاديث تارة بالضعف وتارة بالوضع مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم"[25]

ثالثا: التأويل وأسسه المنهجية في العصر الحديث:

لقد شهدت الأمة الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر تغيرات مفصلية شملت جميع الميادين، وهذا التغيرات مردّها لجملة من العوامل، كسقوط الخلافة العثمانية، ودخول معظم الأقطار الإسلامية تحت الاستعمار، وترتب على هذا القهر الشامل في جميع الميادين بروز عدة مواقف منها موقف رافض وآخر مستسلم وثالث منسلخ وموالي ورابع مقاوم ...الخ، وسرعان ما تحولت هذه المواقف إلى مسارات فكرية كانت المدرسة الإصلاحية التوفيقية أحدها ممثلة في موقفها الذي يهدف أن يوفق بين منجزات الغرب الباهرة وبين نظرتها الاصلاحية رغبة في إمكانية النهوض بالأمة وذلك من خلال العودة بها إلى القرآن الكريم ومحاربة الجمود والأخذ بالمصالح .[26]

لعل هذه التجاذبات التي مخضتها هاته الفترة أنزلت قضية فهم القرآن الكريم منزلا منهجيا في كيفية إسقاط هداياته على الواقع، وهذا ما يستوجب إيجاد جواب على السؤال الكبير: كيف نفهم النص في خضم هذا الواقع؟، وهل هناك تأويلات للقرآن الكريم بحكم الديمومة والشمولية تضمن وفقها نهضة حضارية؟ ثم ما موقف العقل المسلم من التراث؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما موقفه من الآخر -الغرب-؟

كل هذه التساؤلات أسست لتأويل منهجي أثمر فيما المدرسة الإصلاحية في التفسير، والتي " قامت على أنقاض المدرسة العقلية القديمة وورثت العديد من أفكارها، وتجلت معالمها على يد السيد أحمد خان الهندي {ت1897م}، ومن بعده على يد السيد جمال الدين الأفغاني ثم ترسخت على يد الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا"[27]

لهذا قعدت هذه المدرسة أسسا منهجية للتأويل، وهي كالآتي[28]:

- الأساس الأول: اعتماد العقل في التفسير.
- الأساس الثاني: اعتماد قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"
- الأساس الثالث: التفسير العلمي للقرآن الكريم.
- الأساس الرابع: الوحدة الموضوعية.

إن ما تستوجبه الصناعة الأكاديمة هو التنبيه على أن هذه الأسس لحقها النقد وخاصة الأساس الأول الذي قال فيه محمد عبده:" الأصل الأول في الإسلام النظر العقلي لتحصيل الإيمان، فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي، والنظر عنده وسيلة الإيمان الصحيح"[29] هذا الكلام الذي أسال حبرا كثيرا بين التيارات الفكرية المعاصرة، بل وجعل البعض يلحقهم بالمعتزلة!

فتقديمه مطلق العقل لتحصيل الإيمان فيه نظر! خاصة وأن العلامة التفتزاني نقل الإجماع على خلافه إذ يقول:" وأما وجوب المعرفة فعندنا بالشرع للنصوص الواردة فيه، والإجماع المنعقد عليه"[30] فالمعرفة يقودها الشرع والوحي ويصدقها ولا يتعارض معها العقل السليم والسويّ.

مثال توضيحي لهذه المدرسة:

«وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾» سورة البقرة الآية102.

يرى الأستاذ رشيد رضا في معرض كلامه عن السحر مشيرا إلى كثرة وروده في القرآن الكريم سيما في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فينطلق في تأويله وتفسيره من خلال عرض مصطلح السحر على اللغة فذكر أنه على عدة معاني:[31]

أ. كل ما لطف مأخده ودقّ وخفي.

ب. سَحَرَ بمعنى خدع، والخداع إظهار الشيء على غير صورته في الواقع.

ج. السحر يكون كتأثير العيون في عشاق الحسان، والكلام البليغ في عشاق البيان، لقوله صلى الله عليه وسلم:" وإن من البيان لسحرا"[32]

وعلى هذا الاعتبار نزّل الأستاذ السحر الوارد في النصوص بقوله:" ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الإنسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة. وقد قال المؤرخون: إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى"[33].

صحيح أن مصطلح السحر عند اللغويين هو ما ذكره الشيخ ولكن عند مدلوله الاصطلاحي فإنه مخالف لما عليه جمهور العلماء، قال الإمام القرطبي المالكي:" والسحر عندنا حق، وله حقيقة يخلق له عنده ما شاء على ما يأتي"[34]، ويضيف الشنقيطي:" والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخييل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ماله حقيقة **وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾** (سورة البقرة الآية102) ، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سببا للتفريق بين الرجل وامرأته، وقد عبر الله عنه بما الموصولة، وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي"[35]

على هذا يتقرر أن الإجماع حاصل لأهل السنة على أن السحر ثابت وله حقيقة، إذ أنه علم وله روّاده، ولا يحصل التعليم لغير الحقائق!، فلا تعليم للخيال! بخلاف المعتزلة الذي أوّلوا النص وأخرجوه مخرج اللغة فقط، بعيدا عن السياق القرآني هذا من جهة، ومن جهة أخرى اتفق المفسرون على أن سبب نزول سورة الفلق ما كان من سحر لبيد

بن الأعصم للنبي صلى الله عليه وسلم[36]، على خلاف المعتزلة الذين أنكروا السحر حقيقة إلا على نحو ما قررته الوضع اللغوي، يقول الدكتور الذهبي معلقا على نص الأستاذ رشيد رضا :" ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة في فهم القرآن الكريم، أنّا نجده يخالف رأي جمهور أهل السنّة، ويذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة من أن المعتزلة من أن السحر لا حقيقة له"[37]

والجدير بالذكر أن بعض من سلكوا منهج التأويل المعاصر العاري عن الضوابط قد أظهروا ثغرات منهجية فادحة كما هو الحال عند الأستاذ محمد أركون الذي يقول: "إذا كانت قراءتي صحيحة، وإذا ما حظيت بالقبول فإن ذلك يطرح مشكلة حاسمة بالنسبة للفكر الإسلامي المعاصر، كما لا يزال يمارس حتى اليوم، أقصد بذلك ما يلي، أريد لقراءتي هذه أن تطرح مشكلة لم تطرح عمليا قط بهذا الشكل من قبل الفكر الإسلامي ألا وهي تاريخية القرآن وتاريخية ارتباطه بلحظة زمنية معينة ومحددة، وبالتالي فلم يعد ممكنا إسقاط مفهوم العقل وتحديات العقل على القرآن لم يعد ممكنا إسقاط الوعي العقلاني المتأثر بالفلسفة الإغريقية عليه، كما فعلت القراءات الإسلامية طيلة قرون وقرون، وهذا هو الهدف الأساسي من الدراسة التي أقدمها بين أيديكم اليوم"[38].

الأستاذ أركون يحاول أن يمارس قراءة تاريخية يفرضها فرضا على النص القرآني وهو يرى أنها ستمتنع عن أيّة عملية إسقاط إيديولوجي على القرآن، وقراءته هاته يُخشى عليها اللاموضوعية ومراوغة المتلقي لقبولها في صورة مسلمة لا تستدعي نقاشا، ومن هذه الطرق زعمه أن النص القرآني سيظل مستغلقا غير مفهوم حتى من قبل الأكثر تخصصا فضلا عن متوسطي التعليم مالم تتم أرخنته وإخضاعه لقيدي الزمان والمكان والبيئة، والمقصود بالأرخنة هي:" الكشف عن تاريخية الخطاب القرآني، وذلك بوصله بالبيئة الجغرافية والطبيعة البشرية مع إخضاعة لأدوات النص الأدبي"[39].

وهو ما ذهب إليه طه حسين صريحا بقوله:" القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصا للعصر الذي تلي فيه"[40].

الحاصل أن ما أتى به هؤلاء لا يعدوا إلا من قبيل التأويل الفاسد الذي يرتضيه المنهج التشكيكي الغربي الحداثي اتجاه القرآن الكريم، ولعّل الدكتور سلمان العودة يزيد في بسط المسألة محررا مناطها فيقول:" إن المدرسة العقلية الحداثية اسم يطلق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى الى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلا جيدا يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين ومع انفجار المعلومات والاكتشافات الصناعية الهائلة في هذا العصر، وتتفاوت رموز تلك المدرسة تفاوتا كبيرا في موقفها من النص الشرعي، ولكنها تشترك في الإسراف في تأويل النصوص سواء كانت نصوص العقيدة أو نصوص الأحكام أو الأخبار المحضة في رد ما يستعصي من تلك النصوص على التأويل"[41]

ويضيف الدكتور يوسف القرضاوي في معرض تحليله للمدرسة العقلية ما نصه: "ومن نظر إلى المدارس العقلية يجد أنّ أصحابها ذهبوا بعيدا في تأويلاتهم الجائرة للنصوص أو على الأقل المتكلفة لها فقد انتهى بهم هذا الشطح إلى أودية بعيدة انطمس فيها السبيل وعدم الدليل"[42] ، نلاحظ أن النص ركزّ على مغبة الافراط في استخدام العقل المفضي إلى الاعتداء والجور على هيبة النصوص وقداستها.

الخاتمة:

لقد عاينت هذه الورقة البحثية مسألة تأويل النص القرآني انطلاقا من أصل وضعه اللغوي ثم التعريج على ذكر ضوابط وشروط التأويل، وصولا إلى الأسس المنهجية للتأويل في العصر الحديث، وعليه نخلص إلى أهم النتائج والتوصيات كالآتي:

1. مصطلح التأويل ليس مصطلحا حادثا وإنما هو من صميم تراثنا الإسلامي الوارد في القرآن والسنة.
2. مصطلح التأويل أصبح حمّال أوجه بين على خلاف ما كان عليه عند المتقدمين.
3. تعتبر المعتزلة فرقة إسلامية مجدت العقل على حساب النص فوقعت التأويل مجانبة إجماع العلماء وجمهور الأمة.

4. وقفت هذه الورقة البحثية على المنهج الحداثي ممثلا في الأستاذ محمد أركون الذي يهتم بإعادة قراءة القرآن الكريم بإخضاعه لمناهج العلوم الإنسانية الحديثة، ليخلص إلى أرخنة النص القرآني ويجعله حبيس زمانه ومكانه الذي نزل فيه.

هذا ما تيسر لي جمعه وترتيبه، والله أسأل أن ينفع به كل من قرأه، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

[1] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1، ص158.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص158.

3 محمد التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة ناشرون بيروت، ط1996، ج1، ص261.

4 ابن منظور، لسان العرب، تح: أمين عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص264.

5 الراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، تح: خالد عباني، دار المعرفة، بيروت، ط6، سنة 2010م، ص40.

6 ابن منظور، مرجع سابق، ج1، ص264.

7 نجادي بوعمامة، النص في القرآن بين تأويل القدامى والمحدثين، رسالة مقدمة لنيل شهادة الكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان كلية الآداب واللغات، ص22.

8 ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تح: محمد رشاد سالم، دار الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط2، سنة 1991، ج1، ص15.

9 ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تح: عامر الجزار وأنور البار، دار ابن حزم، بيروت،ط4، سنة2011، ج7، ص154.

10 ينظر: المرجع نفسه، ج7، ص156.

11 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ، ج7، 154.

12 ابن تيمية، البيان لتفسير آي القرآن، تح: عمر بن غرامة العمروي، مكتبة دار الطحاوي، السعودية، ط1، سنة1424هـ، ج2،ص217.

13 ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج5، ص383.

14 محمد الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تح: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي،ط1، سنة 1999م، ج1، ص177.

15 حديث ابن عباس، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره" تفسير القرآن العظيم"، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة مصطفى الباز، السعودية، ط3، سنة 1419هـ، ج6، ص1832، رقم: 10503.

16 ابن القيم، الصواعق المرسلة، دار العاصمة، الرياض، ط3، سنة 1998، ج1، ص181.

17 محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر بيروت، ط1، سنة 1995م، ج1، ص189.

18 رواه البخاري، الجامع الصحيح، تح: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط1، سنة 1422هـ، ج1، ص41، رقم:143.

19 ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الجيل بيروت لبنان،ط1، سنة1987م، ص97.

20 أحمد الشهرستاني، الملل والنحل، تعليق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط2، 1992م، ج1، ص43.

21 ينظر: نجادي بوعمامة، النص في القرآن بين تأويل القدامى والمحدثين، ص91.

22 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ، ج5، 164.

23 ابن تيمية، العقيدة الواسطية، تح: صالح بن عبد العزيز، دار أعلام السنة، الرياض، ط1، سنة 2010م، ص225.

24 أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط4، سنة 1405هـ، ج6، ص225.

25 حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، اعتنى بها محمد البلتاجي، مكتبة وهبة القاهرة، ج2، ص402.

26 ينظر: مصطفى دسوقي كسبة، الإطار الفكري لمدرسة المنار وموقفها من المدارس الأخرى، ندوة دولية حول مدرسة المنار ودورها في الاصلاح الإسلامي الحديث، العدد8/9 أكتوبر2002م، مركز الدراسات المعرفية القاهرة، ص418.

27 عدنان محمد أمامة، التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، ب ت ص 364.

28 ينظر: نجادي بوعمامة، النص في القرآن بين تأويل القدامى والمحدثين، ص317 بتصرف.

29 محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار الحداثة، ط3، سنة1988م، ص69.

30 مسعود التفتزاني، شرح المقاصد، تح: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت لبنان، ط2، سنة 1998م، ج1، ص263.

31 ينظر: رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم {تفسير المنار}، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1990م، ج1، ص330-331.

32 رواه البخاري، الجامع الصحيح، ج11، ص318، رقم 5146.

33 رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم {تفسير المنار}، ج1، ص330.

34 شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط2، سنة 1384هـ، ج2، ص33.

35 الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان، ج4، ص35.

36 ينظر: جلال الدين السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، تح: أحمد عبد الشافي، ص ب:9424، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص220.

37 حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، ص420.

38 محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هشام صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، سنة 1996م، ص212.

39 نجادي بوعمامة، النص في القرآن بين تأويل القدامى والمحدثين، ص454.

40 طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة الفاروق، القاهرة، ط3، سنة 1933م، ص23/22.

41 سلمان العودة، حوار هادئ مع الشيخ الغزالي، إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد،ط1، سنة 1409هـ، السعودية، ص 09.

42 يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، دار الشروق القاهرة، ط3، سنة2000م، ص301.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊